

حديث مجلس

للمؤستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

زارني صديق، ففعلت ما يفعل المرء مثله في العادة حين يجيئه ضيف : قدمت له السجائر ليأخذ منها واحدة وأشعلت عود الكبريت . وكنت لا أشعر برغبة في التدخين في تلك اللحظة ، فكانت أصابع إحدى يدي ممدودة إليه بالكبريت وأصابع اليد الأخرى تثني الغطاء على السجائر ، فلما أشعل سيجارته رددت يدي إلى فمي وزممت شفتي لأنفخ وأطفئ النار ألقبتي أتردد ثم أتناول سيجارة .

وقلت لصاحبي وأنا أنفخ الدخان مثله : أرايت ... لم أكن أريد أن أدخن ، ولكن العادة غلبتني حين رأيت النار في طرف العود بين أصابعي . وأنا أغالط نفسي وأقول لها مازحاً إن الكبريت أغلى من السجائر ، وإن من سوء التدبير أن أضيّع عود كبريت من أجل سيجارة واحدة . وتروقي هذه المغالطة لأنها تفتح لي باب القياس والتشليل فأقول إن الإنسان كثيراً ما يضيع الكثير من جراء حرصه على القليل فما رأيك ؟

قال : « رأي أن هذا صحيح . وسأنقص عليك قصة .

قلت : « هاتها ،

وسرفني أني أطلقت لسانه وأنه صار في وسعي أن أستريح من الكلام ، فإن من تقاضى أني طويل الصمت وإن كنت في العادة ثرثاراً عظيماً ، وأحسني أهرب بالصمت من الناس ، وبالثرة من نفسي

وسمعته يقول : « كنت منذ سنوات أتعلم العزف على الكمان ، وكان معلني تركيا ضيق الصدر من أولئك « المولوية » الذين يعيشون في التكايا ويزجون فراغ الحياة بالموسيقى وما تغري به . وكنت قد اشتريت « فرسا » جديدة للكمان - والفرس كما تعرف هي قطعة من الخشب المنجور ترفع عليها الأوتار ، فلما رأها أستاذي غضب ورمها وقال إنها غليظة ، وذهب يعنفني ويؤنبني كأنما كنت أنا صانعها ، أو كأنما كنت أدري قبل ذلك شيئاً عن الكمان والأوتار والفرس ، فكرهت سوء خلقه وثقل على نفسي

سلوكه وزهدت في التعلم - على هذا الرجل على الأقل - وزارني بعد خروجه صديق رأي متقبضاً متجهماً ، فسألني عن السبب فحدثته به . فأحب أن يرى هذه « الفرس » التي أثارت كل هذا الخلاف ، وكانت لا تزال على الأرض ، فأشرت إليها فتناولها وقال : « هذه » وجعل يقلبها في يديه مستغرباً ، ثم طلب أن أدعها له ، فقلت : « خذها ياسيدي » فلما لم قيمة في الحقيقة فإن ثمنها لا يزيد على قرشين ، ولكن معلني كان ممن يخلقون من الزينة خمارة عظيمة ومضى بها صاحبي ونسيت الأمر كله جملة وتفصيلاً ، وإذا به بعد سنة أو نحو ذلك يقول لي إنه يتعلم العزف على الكمان وإن الدافع له على ذلك والمغري به كان هذه الفرس التي ظل بضعة شهور يخرجها من مكانها كلما خلا إلى نفسه ويتأملها وهو الآن من خير هواة العزف على الكمان

قلت : « وأنت ،

قال : « أنا .. انقطعت عن الدرس .. لم أجد أستاذا أقدر منه أو مثله قدرة وإن كنت وجدت كثيرين أرحب صدراً ... على أني كنت أدور على المعلمين كارها وبى فتور شديد فكففت ، قلت : « هل تعلم أني أنا أيضاً تعلت العزف على الكمان .. ظلمت أتعلم أكثر من سنة .. فلو أني واطبت لكنت الآن من أمهر العازفين على هذه الآلة .. خمس وعشرون سنة .. من يدري .. لعلي كنت خليقاً أن أنحول عن الأدب إلى الموسيقى . ولكن قلة الصبر .. والخجل من أن يسمع الجيران الأصوات النائية التي أخرجها .. والاستحياء من أن يعرف عني أني مبتدئ .. كل هذا صرفني .. كما صرفني عوامل أخرى عن الشعر ..

فابتسم وقال : « والآن ؟

قلت : « الآن .. أنا الذي كنت خليقاً أن أكون شيئاً . ولكن .. لا بأس .. أرانا بعدنا جداً عن الموضوع ، فابتسم مرة أخرى وقال « لا بأس ...

قلت : « صدقت .. كل شيء ككل شيء في هذه الحياة .. هبني كنت الشيء الضخم الذي كان يغريني الصبي والخيال الجامع بالطمع فيه والتطلع إليه فماذا إذن ؟

قال : « كنت تكون أشد رضى عن نفسك ،

قلت : « كنت أشعر .. كلا .. كان رأيي في نفسي يبق كما هو .. ربما غرتني رأي الناس أحياناً ، ولكن بلائي أني حين أغتر

أدرك أني مغتر فيسلبني إدراكي هذا متعة الغرور . . . لست أقول
إني غير قابل أو مستعد للغرور أو عرضة له ، فاني كغيري في هذا ،
والغرور لازم لاطاقة الحياة ، وبغيره لا أدري كيف يطبق الناس
عيشهم . ولكني لا أزال أدير عيني في نفسي وأتأملها وأخصها
وأنكت تربتها كما ينكت المرء الأرض بطرف العصي ، وأخلق
بهذا أن يكشف للانسان عن حقائق غير التي يزيغها أو يعمها
الغرور . . . وأول ما يعرفه المرء — بفضل الفحص المتواصل
والتدبر المستمر — هو حدودها ، ومتى عرف المرء حدود نفسه
فأيقن أنها لن تغيب عن عينه قط . . . وقد يعالج توسيعها وإفساح
ما بينها . . . ولكنها تظل ماثلة أبدا . . . والشعور بهذه الحدود
كرب وبلاء . . . والجهد الذي يبذله الانسان لعلاج النقص الذي
يشعر به في نفسه كرب آخر . . . آلة محدودة القوة تريد أن تبلغ
بها ما تستطيعه آلة أخرى أقوى منها . . . هذا الجهد ماذا تظنه
يكلف الآلة المسكينه المحدودة القوة والعزم . . . وفوق كل قوة
أخرى أعظم . . . وتجاهد حتى تبلغ بنفسك فوق ما كان ظنك
أنها قادرة عليه فلا تقنع بهذا . . . لأن هناك مرتبة أعلى ومنازل
أخرى أسنى ، فانت لاتزال تسنح نفسك وتدفعها وتخزها . . .
ولا نهاية لهذه الدائرة . . . وهذه هي حياتنا جميعا . . . في الحقيقة
والخيال . . . محاولات مستمرة لعلاج ما نحسه من نقصنا . . . ولا
يخلو هذا من جانبه المضحك . . . فقد يعيننا أن نصلح الفاسد
ونعالج الضعف ، أو أن نعوضه من ناحية أخرى قابلة للزيادة والنمو
فتروح نستر العيب أو الضعف أو النقص سترا نظنه وأيقا كافيا
أو نخال لنبدو كأن قوتنا هي في هذه الناحية التي نعرف ضعفنا
فيها . . . والانسان ليس بشيء إذا لم يكن منافقا مرائيا ودجالا كبيرا . .
فقال صاحبي : . . أو لا يدرك المرء حدود نفسه إلا إذا دأب
على إدارة عينه فيها ؟

قلت : . . لا . . . ليست هذه سوى طريقة واحدة لمعرفة النفس ،
ومثلنا العايم يقول إن سكة أي زيد كلها مسالك . . . ولا أعرف
من هو أبو زيد هذا . . . ولكني أعلم أن المعرفة سكتها كثيرة
المسالك . . . ومن المسالك التجربة والمعاناة . . . والتجربة تتيح للانسان
أن يقيس ما عنده إلى ما عند سواه فيعرف في أية ناحية قوته ،
وفي أي النواحي نقصه وضعفه وتقصيره . . . وأعترف لك
بحقيقة . . . لقد كنت في سني وفي ميعتي يهولني أن أرى نفسي

عاجزا عن الحب الذي أرى غيري قادرا عليه . . . نعم كنت
أشعر بالاعجاب وبسحر الجمال وقتة الحسن ، ولكن شعوري هذا
كان لا يطول ولا يلبث أن يفتر . . . ولم يكن الحب عندي أكثر
من مظهر رغبة وقتية تزول إذا زال الداعي إليها كما يجوع المرء
فيشتهي الطعام ، حتى إذا أصاب شبعه صد عنه ولم يعد يذكره إلى
أن يجوع مرة أخرى . . . فلا أرق ولا شوق ولا أحلام ولا بكاء ،
وإذا حرمت حظا في باب الحب فكما يحرم المرء نصيبا من لون
من ألوان الآكال كان يشتهي أن يفوز به . . . وما أكثر ملايين
الناس الذين يعيشون محرومين ويعلمون أنهم محرومون ومع
ذلك يحبون ويسعدون بالحياة . . . كذلك كنت . . . ولم يكن إخو
كذلك ، ولا كان الذين أقرأ أخبارهم في كتب الأدب مثل .
فكنت أستغرب وأنكر من نفسي هذا الجود أو إن شئت هذه
الحصانة أو المناعة من الحب بالمعنى المعروف المألوف . الحب
الطاغي العنيف الذي لا يفتر ولا يخجل له ضرام والذي يذكر
بمجنون ليلي وأشابهه . فأغراني هذا الذي بلوته من نفسي بالتكلف
ولججت في التكلف حتى لكان يخيل إلى أحيانا أن الأمر صار
جدا لاهزل فيه . . . وكنت أشجع نفسي على الأرق وأحثها على
التذكر والشوق ، وألح عليها بأجل شعر الغزل في الأدب العربي
والآداب الغربية لأوحى إليها الروح الذي ينقصها ، وكنت أتمثل
هذه الحالات التي يصفها الشعراء وأسمع بها من الاخوان ، وأروض
نفسي على مثلها وأجعلها تستغرقني حتى قلت شعرا كثيرا في ذلك
لا يشك قارئه في أنه صادر عن عاطفة صادقة عميقة قوية . ولم
أكن أنا أشك في أن الأمر كذلك أيام كنت أقول هذا الشعر
لأنني لم أزل أعالج نفسي بالآيحاء إليها حتى صار الأمر أشبه ما يكون
بالحقيقة . ولكني كنت في أعماق نفسي أدرك الحقيقة .
وكنت أمتحن نفسي أحيانا بالبعد فلا أراي أشتاق أو أتلهف أو
أتحسر أو أصبر إلى آخر ذلك . وأخيرا ملك هذا التكلف . وهذا

من أسباب تركي للشعر . وثم أسباب أخرى ولكن هذا من
أكبرها إذا لم يكن أكبرها . . .
فاستغرب صاحبي وجعل ينشدني بعض ما يحفظ — وما
نسيت أنا — من شعري ، ويسألني أكان هذا تكلفا ، قلت له
. لم يكن الشعور الموصوف في هذه الآيات كاذبا ، فانه كان صادقا
في ساعته . . . كان حبا قصير العمر جدا . . . حب ساعة . . . اعجاب

في الأدب المقارن

التفاوت والتشاور

في الأدبين العربي والانجليزي
للأستاذ نغري أبو السعود

حب الحياة كائن في طبيعة كل حي، والرضى بها والاطمئنان إليها والاقبال عليها شعبة جميع الأحياء مادامت بنياتهم صحيحة وحاجاتهم حاضرة، والمرح واللعب غايتهم الأخيرة مادامت غرائزهم مقضية اللبانات مشبعة المطالب. ولما كان الإنسان يمتاز بالخيال والفكر فإن له مطالب نفسية غير مطالب جسده الغريزية؛ يرضى ويرتاح إذا قضاه، ويقنط ويكتئب إذا أخطأها؛ وليس يشكو الحى أو يألم، وليس يسخط الإنسان أو ينقم، إلا أن يندو وهو سقيم الجسم أو محروم الغريزة أو ممنوع المطالب. فحب الحياة والاقبال عليها والرضى عنها هي الحال الطبيعية العادية، وذم الحياة والعزوف عنها والسخط عليها حال طارئة استثنائية، نتيجة لامتناع وسائلها وعدم موائمة أسبابها. فالتشائمون قوم قست الحياة عليهم لحرمتهم قليلاً أو كثيراً بما حبت به سواهم، فثاروا عليها وكالوا لها قسوة بقسوة، وجزئوها على حيفها بمرير الدم والتفئيد؛ فلما نرى بين المتشائمين الزارين على الحياة والأحياء رجلاً صحيح البدن معتدل المزاج محدوداً وثاقاً بنفسه، بل كلهم بمن أكسبتهم الوراثة والنشأة والبيئة أجساماً معتدلة أو أعصاباً مختلة، أو ألحت عليهم الخطوب لحطمت مساعيهم، أو اقتنعوا بعجزهم عن مفاولة الأحياء في ميدان الحياة، فأورثهم ذلك حساً مرهقاً متيقظاً إلى مواطن الشر والقسوة والنقص في الحياة، ففقدوا يَبْرُونَ لها وللنقبيلين عليها السهام.

وفي الحياة مواطن للنقص لا تحصى، يهتدى إليها الناقلون عليها بلا عناء، وهي تعرض مثالها عليهم وتضع أصابعهم على نقائصها؛ بيد أن المتفائل المعافى الجسم الناجع المسعى قلباً يلتفت إلى تلك المساوئ، وإذا التفت إليها فبرهة قصيرة يأتي فيها

إذا شئت. نشوة عارضة كنشوة الخمر. وكونها عارضة... من فعل الخمر أو بتأثير الحسن لا يمنع أن الشعور الذي تحدثه صادق في حينه. وقد يلج المرء على نفسه بالايحاء إليها حتى يشعر بما يشعر به العاشق الحقيقي. فيكون شعوره أيضاً في حينه صادقاً. ولكن بعد ذلك.. بعد أن يثوب الرشد الذي أضاعه الخمر، ويرجع الاتزان الذي أفسده منظر الحسن، أو تعود الحالة الطبيعية التي اضطربت من جراء الايحاء. بعد ذلك يذهب ما جاءت به النشوة الوقتية، وقد أفادني علاج نفسي ورياضتها على أن تستغرقها الحالة التي أمثلها. نعم بقيت عاجزاً عن العشق وفي أمان من جنون الحب فإن هذه طباع لا حيلة لي فيها، ولكنني أصبحت بفضل هذه الرياضة أستطيع حين أفكر في شيء أو أكتب شيئاً أو أشغل بأمري أن أذهل عن الدنيا. فلا أسمع ولا أرى، ولا يستطيع شيء أن يصرفني عما أنا فيه.. خرجت بفائدة على كل حال. وكثيراً ما ترى الإنسان يطلب شيئاً فيخطئه ويفوز بغيره..

فقال: «ولكنك محروم وهذا فظيع،

قلت: كلا. أنا على تقيض ذلك سعيد. مستريح من وساوس الحب وبلا بله وهو اجسه وتخريفه، وفي وسعي دائماً أن أمتع نفسي بالحسن وأنا هادئ الأعصاب مدرك لما أنا قاتر به بلا اسراف أو غمط في التقدير، ومن غير أن أنقص على نفسي هذه المتع بعد ذلك بالوساوس والخيالات وما إلى ذلك مما يكابده المحبون... وأقول لك الحق إنني أصبحت لا أصدق من يزعم أن حبه على نحو ما يصف الشعراء ومن اليهم. ولا أعتقد إلا أن ذلك نشوة يطيلون عمرها بالايحاء. والايحاء يا صاحبي - إلى النفس وإلى الغير - عامل خطير الاثر في حياتنا. صدقني،

قال: «ولكنني جربت،

قلت: «ما أظن بك إلا أنك تخدع نفسك. وهذه سنة الإنسان أبداً. عد إلى نفسك وحلل خوالجك بلا خوف من مواجهة الحقيقة ولا جزع ولا اشفاق. اجعل من نفسك شخصاً مستقلاً. طبيياً يفحص حالة ولا يعنيه إلا ما يهتدى إليه. وانظر ما يكون.. ثم تعال واخبرني. وأنا واثق أن النتيجة ستكون مطابقة لما حدثتك به عن نفسي،

فوعده أن يفعل.. ولكنه لم يعد إلى

ابراهيم عبر القادر المازني